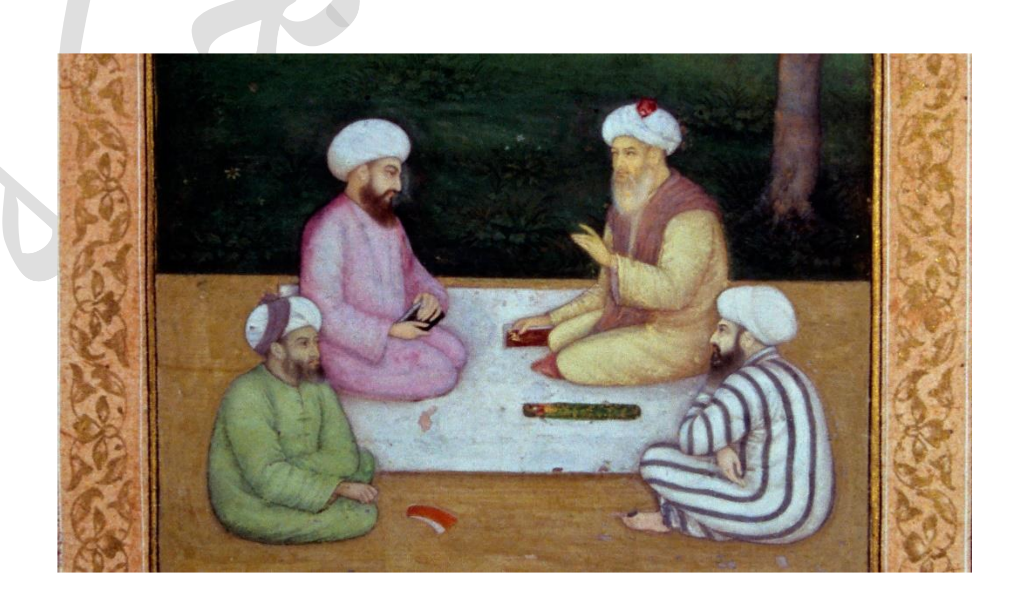
حديقة الورد السرية

تأليف: محمود الشبستري

اعداد وضبط وتنقيح: مكتبة نوافذ الحكمة





شعار المكتبة التي قامت بتنقيح الكتاب

مقدمة المنقح:

رأيت أن يُترجَم هذا الكتاب، وهو كتاب أشعار صوفية تتحدث عن الخالق والله وغيرها بصورة صوفية جميلة معبرة.

هذا الكتاب من تأليف الشاعر سعد الدين محمود الشبستري، وهو شاعر متصوف زاهد.

أحببت أن أقدم هذا الكتاب للمكتبة العربية، منقحًا معدلًا وبالعربية

زيد نائل العدوان (القائم على المكتبة)

للتواصل عبر الايميل: zaidadwan@gmail.com

الفهرس:

ملاحظة تحريرية

إن هدف محرري هذه السلسلة واضحٌ للغاية. فهم يتمنون قبل كل شيء أن تكون هذه الكتب، بأسلوبهم المتواضع، سفراءً للنوايا الحسنة والتفاهم بين الشرق والغرب - عالم الفكر القديم وعالم العمل الجديد. وفي هذا المسعى، وفي مجالهم الخاص، ما هم إلا أتباعٌ لأسمى مثالٍ في هذا البلد. وهم على ثقة بأن المعرفة الأعمق بالمُثُل العليا والفلسفة السامية للفكر الشرقي قد تُسهم في إحياء روح الإحسان الحقيقية التي لا تحتقر ولا تخشى الأمم ذات العقيدة أو اللون الآخر.

ل. كرانمر-باينغ

س. أ. كابابيا

مقدمة

نور النور جماله آسر القلوب، وسحره اتحاد الاتحادات.

وكما يمر، تتبعه الأرواح، متمسكة بطرف ثوبه.

حياة شبستاري

"التوهج الباطني هو ما يصنع الصوفي، لا العادة الدينية".

وُلد سعد الدين محمود شبستاري في شبستار، قرب تبريز، حوالي عام 1250 ميلادي.

كتب كتاب "غلشان راز"، أو حديقة الورود السرية، ردًا على أسئلة طرحها عالم صوفي من هرات يُدعى دمير سياد حسيني.

لا يُعرف الكثير عن حياة محمود شبستاري. كتب إلى جانب قصيدة "غلشن راز" رسالتين في التصوف بعنوان "حق اليقين" و"رسالة شديدة". ونعلم أنه كان له تلميذ مفضل يُدعى الشيخ إبراهيم. أُدخلت قصيدة "غلشن راز" إلى أوروبا عن طريق رحّالة اثنين عام ١٧٠٠. ولاحقًا، عُثر على نسخ من القصيدة في العديد من المكتبات الأوروبية. في عام ١٨٢١، نشر الدكتور ذولوك، من برلين، مقتطفات منها، وفي عام ١٨٢٥، ظهرت ترجمة ألمانية لجزء من القصيدة في كتاب آخر له. بعد ذلك، نشر فون هامر بورغشتال ترجمة شعرية ونصًا فارسيًا في برلين وفيينا. تُرجم كتاب "غلشن راز" إلى الإنجليزية، ونُشر مع النص الفارسي ومقتطفات من طبعة هامر وملاحظات لاجيهي، من قِبل السيد وينفيلد عام ١٨٨٠.

الشعر الصوفي

قد يُدهش قارئو الشعر الصوفي لأول مرة، بل وربما يُنفّرون، من لغته المُسهبة، ومن ألفته مع الإله، ومن تجاهله الواضح لجميع الشرائع البشرية والإلهية. ولكن عند التدقيق، يتجلّى عجبُ حب الصوفيين لمحبوبهم بشدّة واضحة، وإشراقةٍ جميلةٍ مُشرقة.

إنهم يُحبّون الواحد، ويتخذ حبهم شكل أناشيد مدحٍ ودهشةٍ رائعة:

"سمعتُ مُفتونًا؛ اندفعت روحي لتلبية أمر الحب المُرحّب به، لأن الصوت كان عذبًا".

يقول فوغان: "اشتهر التصوف الشرقي بشعرائه، وصب في الشعر كل قوته ونارته."

"للصوفيين مهمة واحدة وبسيطة، أن يجعلوا قلوبهم مرآةً نقيةً لإلههم."

الحب هو موضوع الصوفيين، الحب الإلهي الأبدي، وفي بحر الحب هذا، يلقون بأنفسهم بتهور.

يغني الرومي: "الفراشات، المحروقة بشعلة وجه الحبيب، هم العشاق الذين يترددون في الحرم."

"إذا وُصفنا بالمجانين أو السكارى، فذلك بسبب حامل الكأس والكأس."

"لأن فمي أكل من حلوياته. في رؤية واضحة، أستطيع أن أراه وجهًا لوجه."

الرمزية الصوفية

عند قراءة أشعار الصوفيين المفعمة بالبهجة، يجب أن نضع في اعتبارنا أنه على الرغم من استخدام رموز الحب والجمال الدنيوي بكثرة، إلا أن المعنى الحقيقي مخفي. لا شك أن هذا كان في الأصل لإخفاء حبهم الصوفي، خشية أن يسخر منه غير الملتزمين. ولكن مع مرور الوقت، بدأت بعض الكلمات تكتسب معنىً معترفًا به فيما بينها. على سبيل المثال:

المعانقات والقبلات نشوة الحب.

النوم تأمل، والعطر طلب رضا الله.

المشركون هم أهل الإيمان الخالص، لا الكفار.

3

الخمر، الذي حرمه محمد على أتباعه، استخدمه الصوفيون رمزًا لفظيًا للدلالة على المعرفة الروحية، وبائع الخمر هو المرشد الروحي.

الحانةُ مكانٌ يُسكرُ فيه نبيذُ الحبِّ الإلهي الحاجَّ.

السكرُ نشوةٌ دينية، والبهجةُ فرحٌ في حبِّ الإله.

الجمالُ بهاءُ الحبيب.

التجعيداتُ والشعرُ تعددٌ يحجبُ وجهَ الوحدةِ عن عشاقها.

الخدُّ جوهرُ الأسماءِ والصفاتِ الإلهية.

الأسفلُ عالمُ الأرواحِ الطاهرةِ الأقربُ إلى الألوهية.

الشامةُ على الخدِّ هي نقطةُ الوحدةِ التي لا تتجزأ.

المصباحُ هو النورُ الذي أشعله الحبيبُ في القلب.

وهكذا نرى أن الحب بين الرجل والمرأة، بالنسبة للصوفي، هو صورة مُظللة للحب بين الروح والله، وكما يحلم العاشق بمحبوبته، مُشيدًا بها، متعطشًا لرؤية وجهها، كذلك يحلم الصوفيون بإلههم إلى الأبد، مُتأملين في صفاته، مُلتهمين برغبة مُلحة في حضوره.

يحتوي تاريخ التصوف على العديد من أغاني الحب العاطفية للمطلق، ولكن في الشعر الصوفي ثراءٌ خاص، وعمق، ولونٌ يُبهر ويُسحر الكثيرين منا.

يزخر الشعر الصوفي بالاستعارات وقصص الحب الرومانسية، وقصص ليلى والمجنون، ويوسف وزليخة، وسلامان وأبسال، والتي يسهل فيها قراءة المعنى الخفي للشغف بالمطلق. تتنوع موضوعات الحب لدى الصوفيين؛ فنسمع أغاني عن: البلبل الغارق في حب الوردة، والعثة التي ترفرف حول ضوء الشمعة، والحمامة التي تئن بعد فقدان شريكها، والثلج الذي يذوب في الصحراء ويتصاعد كبخار إلى السماء، والليل المظلم في الصحراء الذي يغوص فيه جمل هائج بجنون، وقصب يُقتلع من فراشه ويُحوّل إلى مزمار تملأ موسيقاه الحزينة العيون بالدموع.

الحبيب

إن مفهوم الصوفيين عن الحبيب شخصي في جوهره، مع أنه لا يوجد ما يدل على أنهم عبدوه كشخص، أو مُكلّفون به.

هو صورة. ولأنهم من أتباع وحدة الوجود، فمن المرجح أنهم اعتقدوا أنه النور الواحد الذي يضيء بأشكال لا تُحصى في الكون كله، جوهر واحد يبقى كما هو. في كل لحظة، يبرز الجمال اللص في صورة مختلفة، يسلب الروح ويختفي.

في كل لحظة، يرتدي الحبيب ثوبًا جديدًا، تارة من عجوز، وتارة من شباب.

تارةً انغمس في جوهر طين الخزاف - انغمست الروح كغواص.

ثم نهض من أعماق الطين المصبوب والمشوي،

ثم ظهر في الدنيا.

ويقول الجامي:

"في الجار، الصديق، الرفيق، نراه،

في خرق المتسولين أو ثياب الملوك،

في زنزانة الاتحاد أو في ملاجئ التسلية،

لا أحد غيره، والله، لا أحد غيره".

أدرك الصوفيون أنه من المستحيل مكانيًا وصف ما هو أبعد من الروح النقية.

لقد أخبرنا أفلوطين في مقطع جميل: "لا ينبغي أن نستغرب أن ما يثير أشد الرغبات يكون بلا شكل، حتى لو كان شكلاً روحياً، لأن الروح نفسها، عندما تشتعل حباً له، تتخلى عن كل شكل كان لديها، حتى ما ينتمي إلى العالم الروحي".

إن عجز الصوفي عن وصف حبه السري للمجهول لغير المطلعين، جعله الشاعر الهندي طاغور موضوع قصيدة بديعة: "كنتُ أتفاخر بين الناس بمعرفتك. يرون صورتك في كل أعمالي. يأتون ويسألونني من هو؟ لا أعرف كيف أجيبهم. أقول: "في الواقع، لا أعرف". يلومونني وينصرفون بازدراء. وأنت تجلس هناك مبتسمًا. أحوّل حكاياتي عنك إلى أغاني خالدة. يتدفق السر من قلبي. يأتون ويسألونني: "أخبرني بكل ما تعنيه". لا أعرف كيف أجيبهم. أقول: "آه، من يدري ما يقصدون". يبتسمون وينصرفون في ازدراءٍ مُطلق.

<u>من اللاواقعي إلى الواقعي</u>

اعتقد الصوفيون أن العالم الظاهري هو اللاواقعي، وأن سبب عمى الناس عن وجود العالم الحقيقي، أي الروحي، هو وجود حجبٍ وضبابٍ يفصل الروح عن الله.

يبدو هذا العالم حقيقيًا لمن لا يستطيع استخدام عينه الروحية ورؤية الماوراء. ولأنه لا يُدرك الغيب، فهو لا يؤمن بوجوده.

لكن من يُدرك النور الإلهي المُشرق في قلبه، ويدرك محبة الله في روحه، يستطيع الانتقال من اللاواقعي إلى الواقعي؛ سيرى: "ذهبًا أينما ذهبنا، ولآلئ أينما التفتنا، وفضةً في الخراب."

إن رؤية الجمال الكلي بديعةٌ لدرجة أن من رأى هذه الرؤية يُفتن بها في الحال، ويترك عالم الظلال والتغيير ليتأمل الواحد. ولن يهدأ له بال حتى يُطهر حياته، ويتخلص من كل ما قد يعيق طريقه، ويقضي حياته كلها في شركة مع الله، وفي الوقت نفسه يُغدق على نفسه بأغاني الحب والتسبيح كل عبادة وتقديس.

والله ما طلعت شمس ولا غربت إلا كنتَ همي وحلم قلبي. وما جلستُ أُحادث قومًا إلا كنتَ حديثي بين أصحابي. وما ذكرتُكَ في فرحٍ ولا حزنٍ إلا امتزجت أنفاسي بحبك. وما عزمتُ على شرب الماء وأنا عطشان، إلا رأيتُ صورتك في الكأس. ولو قدرتُ على المجيء لزرتكَ زاحفًا على وجهي أو ماشيًا على رأسي.

وعندما ينتقل الصوفي إلى العالم الحقيقي، يتمكن من رؤية الوجود الأرضي في نوره الحقيقي:

"أنا تائهٌ عن نفسي لا شعوريًا،

وضاعت صفاتي.

اليوم تائهٌ عن كل شيء:

لا يبقى إلا تعبيرٌ مُجبر".

يجتاز عالمًا من الظلال، يُحدِّق بصره في الأبدية؛ تبدو له أحداث الكون لا تستحق البهجة ولا الحزن ولا الأسى.

يبدو حب الدنيا تافهًا، باهتًا، وباهتًا، مقارنةً بإخلاصه المتأجج للثابت.

لديه رغبة واحدة، هدف واحد، غاية واحدة - بلوغ النعيم الذي لمسه لفترة وجيزة في لحظات نادرة من النشوة والابتهاج.

العثور على المدينة الصوفية البعيدة التي

"يُخفيها الغموض... الآن عن أعين البشر،

إلا عندما يطلع عليها متجول تائه وحيد،

ترتفع أبراجها الماسية كحلم يقظة".

فن شبستاري

سبق أن قلتُ إنه لا يُعرف الكثير عن حياة شبستاري، ولكن في هذا الكتاب أدلة وافرة على تعلمه ومعرفته بالتصوف.

ومع أنه لا يسحر بسحر حافظ الرقيق، ومع أنه لا يمتلك أصالة الرومي، ولا أسلوبه الذي لا يُضاهى بأناقة الجامي، إلا أنه ربما يتفوق عليهم جميعًا في وضوحه ومباشرة كلامه، وجدية هدفه. إنه يمنحنا رؤية واضحة ومشرقة في إشراقة ساطعة للفضيلة والرذيلة، والواقع والوهم، والحكمة والجهل.

لا نجد أنفسنا في شفق أرض باهتة الألوان حيث نتجول أحيانًا، تجذبنا أصوات الصوفيين العذبة، حيث، وسط عطور حديقة شرقية رقيقة، يُغني العاشق أغاني حب آسرة، سواء كانت من شغف دنيوي أو من سُكر إلهي، لا تزال موضع جدل محتدم حتى يومنا هذا. ولا تُقدَّم لنا

نصائح جريئة كتلك التي يُقدِّمها الجامي حين يُنشِد: "اشرب من حب الدنيا، لتتعلم شفتاك ارتشف نبيذ حبٍّ أقدس."

كانت رؤية محمود للواقع مباشرة ومتميزة، لا الرؤية المُلتبسة التي تُمثّلها رؤية بعض الصوفيين، ومن هذا الواقع، يستطيع التمييز بوضوح بين قوى الخير والشر المُتصارعة.

إنه يُوجِّه نداءً مُتحمِّسًا إلى البشرية للبحث عن الحقيقة، والرغبة في الجوهر لا في السراب، وتجاهل إغراءات الحب الدنيوي ووهمه، والتركيز بدلًا من ذلك على المحبوب كل عشق القلب.

حديقة الورود السرية

مرَّ ما يقرب من سبعمائة عام منذ أن زرع محمود حديقته بورود الحب والعبادة، والعقل والتنوير الروحي.

منذ ذلك الحين، تاه الكثيرون هناك، متسكعين في دروبهم السرية، يقطفون أزهارهم العطرة ليحملوها معهم إلى عالم الظلال والوهم. ما لون هذه الورود الخالد؟ ما سرّ جمالها الدائم، وما عطرها العطر الذي يبقى عبر العصور؟

تبدأ القصيدة ببيان الوجود الأوحد للكائن الحقيقي، ووهم سراب هذا العالم. كيف يصل الإنسان إلى معرفة الله؟ بالفكر، لأن "الفكر ينتقل من الباطل إلى الحق."

لكن العقل والحس لا يستطيعان إبعاد الحقيقة الظاهرة للعالم الظاهري. العقل الذي ينظر إلى نور الأنوار يُعميه ضوء الشمس كالخفاش. حينها ينشأ وعي في روح عدميتها. عند هذه النقطة (فناء الذات) يمكن للإنسان أن يتبين نور الروح. في هذا العالم تنعكس صفات الوجود المختلفة، وكل ذرة من العدم تعكس صفة إلهية: "كل ذرة تخفي وراء حجابها جمال وجه الحبيب المذهل". وهذه الذرات تتوق دومًا إلى العودة إلى مصدرها.

الرحلة إلى الحبيب لا تمر إلا بمرحلتين: الموت عن الذات والاتحاد بالحقيقة.

عندما تموت الذات الدنيا للإنسان، تبقى الذات الحقيقية وتتجاوز سلطان القانون.

هاتان المرحلتان - "الرحلة إلى الله" و"الرحلة إلى الله" - هما دورة. من دار حول هذه الدورة هو إنسان كامل.

عند ميلاد الإنسان في هذا العالم، تستحوذ عليه أهواء شريرة، وإذا استسلم لها، ضاعت روحه. لكن في كل نفس غريزة لله وشوق إلى القداسة. إذا غرس الإنسان هذه الغريزة ونمّى هذا

الشوق، فسطع عليه نور إلهي، فرجع تائبًا، وسار نحو الله؛ نازعًا نفسه، سيلتقي بالحق ويتحد به روحيًا.

ولكن لا ينبغي للإنسان أن يرتاح في هذا الاتحاد الإلهي. بل عليه أن يعود إلى هذا العالم الوهمي، وأن يلتزم في رحلته الهابطة بالقوانين والمعتقدات العادية.

هذا الوجود الظاهري، أي العدم، وهمٌ يتجسد في تأمل عدم واقعية الأصداء والانعكاسات، وفي التأمل في الماضي والمستقبل، وفي الأحداث العابرة التي تبدو في لحظة وجودها حقيقية، لكنها تتلاشى في الماضي وتصبح غامضة وغامضة.

9

ستتجلى في الآخرة أخلاق الإنسان في هذه الحياة الدنيا في أجساد روحية؛ كل شكل منها سيكون مناسبًا لحياته الماضية. حينها ستُعرف الفكرة المادية عن الجنة والحور العين بأنها مجرد خرافة. لن تبقى للإرادة الكاملة أي صفة أو تميز. ثم اشرب كأس الاتحاد مع الله.

هذا هو أمل الصوفية، ولكن في هذه الدنيا، يعقب ثملة كأس الاتحاد صداع الفراق.

شجرة الجمال المركزية

غرس محمود في أرجاء حديقته ورود العقل والإيمان والمعرفة والإيمان؛ إنها تتفتح في كل مكان، جميلةً بألوانها الزاهية من الحقيقة والنقاء. ولكن في المركز نجد شجرة وردٍ لا مثيل لها، تتألق بأزهار إخلاص الحب؛ هذه هي الشجرة التي غرسها محمود بكل شغف قلبه - وصفًا لوجه الحبيب المثالي.

في هذا المكان ننتظر مفتونين، ومن خلال هذا السكون الصوفي، يبدو أننا نسمع صوت من غرس هذه الوردة، منذ زمن بعيد، من أجل الحب، مرددًا عبارته السامية: "لا أرى إلا واحدًا، لا أقول إلا واحدًا، لا أعرف إلا واحدًا."

فلورنس ليدرير

شكر وتقدير

أود أن أتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ إي. هـ. وينفيلد، الذي كان كتابه، الترجمة القياسية لكتاب غلشان إي راز، عونًا كبيرًا لي في إعداد هذا المجلد الصغير. كما أتقدم بالشكر الجزيل للدكتور ر. أ. نيكلسون على سماحه الكريم باقتباس بعضٍ من أعماله في التصوف، وللكابتن ل. كرانمر-باينغ على اهتمامه الكريم بعملي، وعلى نصائحه واقتراحاته المفيدة.

القصيدة الأولى: الوجه الكامل للحبيب

العين والشفة

ما طبيعة العين والشفة؟

لنتأمل.

تشرق من عينيه نظراتٌ فاتنةٌ آسرة.

ينبثق جوهر الوجود من شفته الياقوتية.

تحترق القلوب شهوةً لعينه،

وتُشفى من جديد بابتسامة شفته.

بسبب عينيه تتألم القلوب وتسكر.

شفته الياقوتية تُلبس البشر ثوب الروح.

عينه لا تُدرك هذا العالم المرئي،

ومع ذلك غالبًا ما ترتجف شفته شفقةً.

أحيانًا يسحرنا بلمسة إنسانية،

ويُعين اليائسين.

ابتسامته هي التي تُحيي ماء الإنسان وطينه؛

أنفاسه هي التي تفتح لنا أبواب السماء.

فخٌ مُغرٍ بالذرة هو كل نظرة من تلك العين،

ودكانٌ للنبيذ كامنٌ في كل زاوية.

عندما يعبس، يُدمَّر العالم الواسع،

ولكنه يُستعاد في كل لحظة بقبلته.

دمنا في أوج عطائه بسبب عينه،

وأرواحنا مُختَلة بسبب شفته.

كم سلب قلوبنا بعبوس!

كم رفع أرواحنا بابتسامة!

إذا طلبت منه عناقًا،

ستقول عينه "نعم"، وشفتاه "لا."

أكمل خلق العالم بعبوس،

بين الحين والآخر تُنعش الروح بقبلة.

كنا نتخلى عن حياتنا يائسين عند عبوسه،

ولكننا كنا ننهض من بين الأموات عند قبلته.

١٢

...عندما يتأمل العالم في عينه وشفتيه،

يستسلم لسكر الخمر.

الشامة

نقطة الشامة الوحيدة في خده

هي مركز يدور منه

محيط.

يدور العالمان حول هذا المركز.

من هناك نشأ قلب آدم وروحه.

...القلوب تنزف لأنها انعكاس لنقطة تلك الشامة السوداء،

وكلاهما راكد؛ إذ لا مفر من الانعكاس من الانعكاس.

لن تقبل الوحدة التعدد،

لأن نقطة الوحدة لها جذر واحد فقط.

...أتساءل إن كانت شامته انعكاسًا لقلبي،

أم أن قلبي انعكاس لشامته؟

هل خُلق قلبي من انعكاس شامته؟

أم أنه قد يُرى مُشرقًا في شامته؟

أتساءل إن كان قلبي في وجهه،

أم أن شامته باقية في قلبي.

لكن هذا سرٌّ عميقٌ مخفي، يا للأسف! عني.

...إن كان قلبي انعكاسًا،

فلماذا يتغير هكذا؟

أحيانًا متعب كعينه البراقة، وأحيانًا يلوح جيئة وذهابًا كتجعيدة شعره، وأحيانًا شعاع قمر ساطع كوجهه، وأحيانًا ظل داكن كشامته، وأحيانًا يكون مسجدًا، وأحيانًا كنيسًا، وأحيانًا جحيمًا، وأحيانًا جنة، وأحيانًا يحلق فوق السماء السابعة، وأحيانًا مدفونًا بعيدًا تحت هذه الأرض.

. . .بعد فترة، يعود المريد والزاهد إلى الخمر والمصباح والجمال.

13

التجعيد

إذا سألتني عن القصة الطويلة

لتجعيدة شعر الحبيب،

فلا أستطيع الإجابة، لأنها تحتوي على سر

لا يفهمه إلا العشاق الحقيقيون،

وهم، إذ يُجنّون بجمالها،

يُأسرون كسلسلة ذهبية.

تحدثتُ بصراحةٍ عن ذلك الشكل الرشيق،

لكن طرف الخصلة أوحى لي أن أخفي بهاءه،

ليكون الطريق إليه ملتويًا

ومعوجًا وصعبًا.

تلك الخصلة تُقيّد قلوب العشاق،

وتُجرّ أرواحهم جيئةً وذهابًا

في بحر الرغبات. مئة ألف قلب

مقيدة بإحكام، لا ينجو منها أحد، يا للأسف!

لن يبقى كافرٌ واحدٌ في العالم

لو رأى اهتزاز

تلك الخصلات السوداء،

ولن تبقى على الأرض روحٌ مؤمنة

لو بقوا في مكانهم.

لنفترض أنهم قُصّوا... لا يهم،

سيزداد النهار ويختفي الليل.

كما ينشر العنكبوت شباكه ليُوقع،

هكذا يفعل الحبيب في خلاعة

ينفض خصلات شعره عن وجهه.

انظر إلى يديه تنهب قافلة العقل

وتربطها بالعقد بإحكام.

لا تهدأ تلك التجعيدة أبدًا، تتحرك جيئة وذهابًا، تصنع ليلًا وصباحًا، تتلاعب بالفصول في دهشة.

خُلق آدم عندما هبَّت الريح على طينه بعبير تلك التجعيدة

ذات الرائحة العنبرية.

١٤

وأنا أيضًا أملك نموذجًا؛
لا أطيق الانتظار لحظة،
لكنني أبدأ العمل من جديد بلا أنفاس
لأقتلع قلبي من صدري.
...يقلقني بشدة ذلك التجعيد
الذي يحجب روحي المتلهفة عن وجهه.

الخد والزغب

مسرح الجمال الإلهي هو الخد،
والزغب هو مدخل حضرته المقدسة.
يمحو الجمال خده، القائل:
"بدون حضرتي أنت غير موجود".
في عالم الغيب، الزغب كمروج خضراء
مؤدي إلى قصر الحياة الأبدية.
سوادُ خصلةِ شعرهِ يُحوّلُ النهارَ ليلاً،
وأسفلُ خدهِ يحملُ سرَّ الحياة.
لو استطعتَ أن تُلقي نظرةً خاطفةً على وجههِ وأسفلهِ،
لفهمتَ معنى التعددِ والوحدة.
ستعلّمكَ خصلةُ شعرهِ معرفةَ هذا العالم،
وسيكشفُ أسفلُهِ عن دروبٍ خفية.
تخيّلْ سبعَ آياتٍ، كلُّ حرفٍ منها
يحتوي على بحورٍ من الأسرار؛
هكذا هو خده.
وتخيّلْ، مُخبأً تحتَ كلِّ شعرةٍ من خدهِ،

آلافَ بحورٍ من الأسرار؛

هكذا هو أسفلُه.

كما أنَّ القلبَ عرشُ اللهِ في الماء،

كذلكَ الأسفلُ زينةُ الروح.

القصيدة الثاني. الجمال

زواج الروح

الهابط إلى الأرض،

ذلك الجمال الغريب الآسر للعالم الغيبيّ

يختبئ في عناصر الطبيعة.

وروح الإنسان،

الذي بلغ التوازن الصحيح،

مدركًا لهذه الفرحة الخفية،

يُفتَن ويُفتَن فورًا.

ومن هذا الزواج الصوفي تولد

أغاني الشعراء، والمعرفة الباطنية،

ولغة القلب، والعيش الفاضل،

والطفل الجميل الجمال.

وتمنح الروح العظيمة الإنسان مهرًا

مجد الدنيا الخفي.

سحر الجمال

من العالم الغيبيّ ينزل

جمال سماوي،

ويرفع رايته في مدينة

العدل الدنيوي،

مُثيرًا الفوضى في صفوف العالم؛

الآن يمتطي جواد الجمال، والآن يزدهر سيف البلاغة،

وينحني الجميع على حد سواء،

القديسون والملوك، الدراويش والأنبياء،

متأثرين بسحر الجمال.

جمال الأرض

من أين سحر الوجه الجميل؟

ليس الجمال الأرضي وحده

يسحرنا بجماله.

لعلنا نرى في هذا، كما في مرآة غائمة،

16

انعكاسًا خافتًا للوجه الكامل.

وهذه المشاعر العميقة من البهجة والدهشة

لا تنبع إلا من الجمال الحقيقي الواحد،

ففي الكمال الإلهي لا شريك له.

وليس كل ما يغري قلوب البشر بالشوق هو الرغبة والشهوة.

...لا يظهر الشر إلا كوجه آخر للحقيقة.

١٧

القصيدة الثالثة. البحر ولآلئه

قطرة ماء

انظر كيف اتخذت هذه القطرة من ماء البحر أشكالًا وأسماءً عديدة؛

كانت ضبابًا، وسحابًا، ومطرًا، وندى، وطينًا،

ثم نباتًا، وحيوانًا، وإنسانًا كاملًا؛

ومع ذلك، كانت قطرة ماء

انبثقت منها هذه الأشياء.

وكذلك هذا الكون من عقل، وروح، وسماوات، وأجساد،

لم يكن سوى قطرة ماء في بدايته ونهايته.

...عندما تضربه موجة، يتلاشى العالم؛

وعندما يحين الوقت المحدد للسماء والنجوم،

يضيع وجودها في العدم.

بحر الوجود

في بحر الوجود الفضي

تجرف لآلئ المعرفة البراقة

على شاطئ الكلام،

وتجلب الأصداف الرقيقة قصائد بأشكالها المنحنية

لتنثر الجمال على الشاطئ.

كل موجة تتكسر في أقواس رغوية، تُلقي بألف لؤلؤة ملكية، تحمل أصواتًا غريبة همسًا، جواهر من الإخلاص والفرح والحب. ومع ذلك، فرغم أن ألف موجة ترتفع وتنخفض في كل

لحظة، تُبذر اللآلئ والأصداف، إلا أن هناك المزيد والمزيد في المستقبل، ولا ينقص بحر الوجود هذا بقطرة واحدة.

لآلئ المعرفة

في بحر عُمان، تطفو محارات اللؤلؤ إلى السطح من أعماق الأعماق،

18

وتنتظر بأفواه مفتوحة.

ثم ينشأ من البحر ضباب،

يسقط مرة أخرى كقطرات مطر

في أفواه الأصداف

)بأمر الحقيقة.(

يُغلق كل منها فورًا كما لو كان بمئة قيد،

وتغرق الأصداف مرة أخرى

في أعماق المحيط،

تحمل في قلوبها قطرات اللؤلؤ

التي يبحث عنها الغواصون ويجدونها.

البحر هو الوجود، والشاطئ هو الجسد؛

الضباب، والنعمة، والمطر، معرفة الاسم؛

الحكمة الإنسانية هي الغواص

الذي يحمل في ثوبه

مئة لؤلؤة؛

الروح في وميض برق سريع

تحمل إلى الأذن المستمعة أصواتًا ورسائل

من أصداف المعرفة؛

ثم عندما تنفتح القشور،

انظر إلى اللآلئ الملكية المتلألئة!

19

القصيدة الرابعة: الرحلة

التخلي

انظر، لقد رحل رفاقك؛

ألا تنطلق أنت أيضًا؟

إن كنت ترغب في أن تحلق كطائر،

فاترك للنسور هذا العالم الجيف.

اترك أقاربك،

فإنك يجب أن تبحث عن صديقك الحقيقي.

من يغرق في بحر العدم

يجب أن يتخلى عن كل العلاقات.

ما معنى الأب والأم،

ما معنى الأخ والأخت؟

قد يكون ابنك عدوك، ولكن قد يكون الغريب قريبًا لك؛

حتى رفاقك في الدرب الصوفي

يجب أن ينبذوا.

كل العلاقات رباط، تعويذة،

حلم خرافي،

وهمٌ مُطلق.

لا تُهمل واجبات القانون تجاههم،

ولكن انتبه لنفسك.

...تخلَّ عن الذهب والنساء،

لأنهما مصدر قلق.

المسافر

المسافر على الدرب،

هو من يعرف من أين أتى؛

ثم يسافر على عجل،

مُصبحًا نقيًا من ذاته كما تطهر النار من الدخان.

تُكشف له سلسلة من الوحي

منذ البداية. حتى يُقاد بعيدًا

عن الظلمة والخطيئة.

يعود الآن على خطاه خطوة بخطوة

حتى يصل إلى غايته الكاملة.

هكذا يتطور الإنسان الكامل

منذ وجوده الأول

كمادة غير عضوية،

ثم نَفَسٍ من الروح، فيعيش

ومن الله يستمد قواه الدافعة.

ثم تجعله الحقيقة سيد إرادته،

كما في طفولته يتكشف له تمييزه للعالم.

والآن تُهاجمه إغراءات العالم.

...يظهر الغضب ورغبات الجسد،

ثم الجشع والكبرياء والشراهة؛

تصبح طبيعته شريرة،

أسوأ من حيوان أو شيطان؛

الآن هو في أدنى نقطة،

النقطة المعاكسة للوحدة.

...إذا بقي مقيدًا في هذا الفخ،

يضل أكثر من الوحوش؛

ولكن إذا أشرق نور من عالم الروح،

جذاب إلهيًا،

أو إذا استطاع أن يجد انعكاسًا للدليل،

فعندئذٍ سيستجيب قلبه بشعور من القرابة

لنور الحقيقة هذا،

وسيعود ويعود أدراجه من حيث أتى.

إلى الإيمان، واثقًا أنه وجد طريقه

بدليل أكيد، أو بعجائب

وجاذبية الإلهي،

...يتخلى عن هويته تمامًا

ويصعد على خطى الأنقى.

تحذير

مع أن العالم ملكك، إلا أنك تبقى مكتئبًا،

فمن أحق بالشفقة مثلك؟

21

يا أيها الإنسان، انهض وانطلق،

لا تنتظر ليلًا أو نهارًا في محطات التوقف،

لا تتأخر عن رفقاء السفر والقوافل.

خطوتا الرحلة

رحلة الحجاج خطوتان لا أكثر:

إحداهما هي الخروج من الذات،

والأخرى نحو الاتحاد الروحي مع الصديق.

الخوف

كما لا يحتاج المتسابق العربي للسوط،

فلن تحتاج أنت للخوف

عندما تبدأ رحلتك.

عندما تطهر روحك وجسدك،

لن تخشى نيران جهنم.

ارمِ الذهب الخالص في النار؛

فإن لم يكن فيه سبيكة، فماذا يبقى ليحترق؟

المنطق

إن لم يرشدك الله إلى الطريق،

فلن يكشفه المنطق.

المنطق قيد الأشكال؛

طريق طويل وشاق.

اتركه لفترة. مثل موسى

ارمِ تلك العصا

وادخل وادي السلام لبعض الوقت.

الرضيع والشاب

الرضيع في المهد

يبقى بجانب أمه،

ولكن عندما يكبر

يخرج مع أبيه.

وهكذا تبقى أنت مع أمك،

العناصر الجسدية،

حتى تنضم إلى أبيك في العلاء.

٢٢

شجرة اللوز

كما تُفسد نواة اللوز تمامًا

إذا انتُزعت من قشرتها وهي غير ناضجة،

كذلك يُفسد الخطأ في طريق الحاج

نواة روحه.

عندما يُستنير العارف إلهيًا،

تنضج النواة، وتُمزق القشرة،

وترحل، ولا تعود.

لكن آخر يحتفظ بالقشرة،

مع أنها تُشرق كشمس ساطعة،

ويُكمل دورة أخرى.

من الماء والتراب تنبثق شجرة،

ترتفع أغصانها العالية إلى السماء؛

ثم من بذرة هذه الشجرة

يُولد مئة ضعف.

كما تنمو البذرة في خط شجرة،

من نقطة يأتي خط، ثم دائرة؛

وعندما تكتمل دورة هذه الدائرة،

يُضاف الأخير إلى الأول.

التداخل

أنت التعدد الذي تحول إلى وحدة،

والوحدة التي تمضي إلى كثرة؛

يُفهم هذا السر عندما يترك الإنسان الجزء ويندمج في الكل.

٢٣

القصيدة الخامسة: الزمن وعالم الأحلام

الزمن

انقضى الماضي،

ولم يعد الشهر والسنة القادمان موجودين؛

ليس لنا إلا نقطة صغيرة من الحاضر.

الزمن ليس إلا نقطة خيالية تتحرك باستمرار

التي سميتها مجرى نهر متدفق.

أنا وحدي في صحراء واسعة،

أستمع إلى صدى أصوات غريبة.

حلم الحياة

لقد سمعت الكثير عن هذا العالم،

ولكن ماذا رأيت من هذا العالم؟

ما هو شكله وجوهره؟

ما هو سيمورج، وما هو جبل كاف؟

ما هو الجحيم وما هي الجنة والنار؟

ما هو ذلك العالم الخفي

الذي يعادل يوم منه سنة من هذا؟

تعالَ واستمع إلى المعنى.

أنت نائم، ورؤيتك حلم،

كل ما تراه سراب.

عندما تستيقظ في صباح اليوم الأخير،

ستعرف أن كل هذا وهمٌ خيالي؛

عندما تتوقف عن رؤية الازدواج،

ستتحول الأرض والسماء؛

عندما تكشف لك الشمس الحقيقية عن وجهها،

سيختفي القمر والنجوم والزهرة؛

إذا أشرق شعاع على الصخر الصلب،

كصوف متعدد الألوان، فإنه يتفتت.

العالم الظاهري

24

العالم صورة خيالية،

ظلٌ مبعثرٌ لللانهائي؛

نفسٌ واحدٌ خلق عوالم القيادة

وكل الكائنات الحية.

كما تظهر للظهور، كذلك تبدو للرحيل.

مع أنه لا وجود للمجيء والرحيل الحقيقيين.

فما المجيء إلا المجيء؟

...الكل واحد، المرئي وغير المرئي.

الله العلي، الأزلي، يخلق ويدمر العالمين.

...الأشكال المتنوعة التي تراها ليست سوى أشباح من خيالك،

وبدورانها السريع في دائرة

تبدو كواحد.

الحقيقي واللاواقعي

يُنتج الخيال ظواهر

ليس لها وجود حقيقي،

لذا، ليس لهذا العالم حقيقة جوهرية،

بل هو مجرد عرض مسرحي غامض.

يسود الوجود المطلق كل شيء

في كماله المطلق.

هناك أعداد كثيرة، لكن واحدًا فقط يُحصى.

هذا العالم سراب

يُترك المنزل فارغًا، إلا من الحقيقة،

لأن العالم قد اندثر في لحظة؛

ثم تتحرر من ذاتك، وتحلق إلى الأعلى

وتتحد مع الحبيب.

يصبح الاتحاد لك عندما يتلاشى هذا العالم الحلمي ويزول.

٢٥

القصيدة السادسة. انعكاسات

انعكاسات الشمس

انعكاسات الشمس من العالم الخفي

جميع أغراض هذا العالم الفاني،

كتجعيدة، وأسفل، وشامة، وجبهة على وجه جميل.

لأن الجمال المطلق يسود على كل شيء.

...عندما تسمع الآذان هذه الكلمات لأول مرة،

يبدو أنها تشير إلى أشياء حسية.

ولكن بما أنه لا توجد لغة للانهائي،

فكيف يمكننا التعبير عن أسراره

بكلمات محدودة؟

أو كيف يمكن وصف رؤى النشوة

بصيغة أرضية؟

هكذا يحجب المتصوفون معانيهم

في ظلال الغيب،

أشياء الحواس.

...كمرضعة لرضيع،

هكذا اللانهائي للمحدود.

...كانت هذه الكلمات تُستخدم بمعناها الصحيح،

لكنها الآن مخفية

لا ينبغي للعامة أن يُدنّسوا.

الفناء، والنشوة، وحمى الحب

هي حالات الصوفي الثلاث،

ومن يُقيمون في هذه الحالات

يُدركون المعاني

المُخبأة في الكلمات.

وإن لم تعرفها،

فلا تتظاهر بفهمك كالكافر الجاهل،

فليس كلُّ من يُدرك الصوفية أو يُدرك الأسرار.

ليست الأوهام مجرد أحلام الصوفي،

ورجل الحق لا يُكثر الكلام.

يتطلب الفهم وحيًا أو إيمانًا عظيمًا.

٢٦

لقد شرحتُ هذه الكلمات ومعانيها بإيجاز

لكي تُطبّقوها على نيّتها الصحيحة،

متذكرين صفات كلٍّ منها.

قارنوها بطريقة صحيحة،

وامتنعوا عن المقارنات الخاطئة.

والآن وقد فهمتم هذه القواعد، سأُريكم المزيد من تطبيقاتها.

المرآة

عينك لا تملك القوة الكافية

لتحديق الشمس الحارقة،

لكنك تستطيع رؤية ضوءها الساطع

بمراقبة انعكاسها

منعكسًا في الماء.

لذا، يمكن رؤية انعكاس الوجود المطلق

في مرآة العدم هذه،

لأن العدم، كونه نقيضًا للواقع،

يلتقط انعكاسه فورًا.

اعلم أن العالم من أقصاه إلى أقصاه مرآة؛

في كل ذرة مئة شمس مختبئة.

إذا طعنتَ قلب قطرة ماء واحدة،

فسيتدفق منها مئة محيط صافٍ؛

إذا دققتَ النظر في كل ذرة غبار،

سترى فيها ألف كائن،

البعوضة في أطرافها كالفيل؛

في الاسم، قطرة ماء تُشبه النيل،

في قلب حبة شعير تُخزن مئة محصول،

في داخل بذرة دخن يوجد عالم،

في جناح حشرة بحر من الحياة،

سماءٌ مُخبأة في بؤبؤ عين،

لبّ القلب صغير،

ومع ذلك سيدخل ربّ العالمين.

الشر

27

اسودّ ظهر المرآة

فينعكس وجهك،

كما يعكس غبار الأرض

أشعة الشمس في السماء السابعة.

الانعكاس في المرآة

ارفع مرآة أمامك

وانظر إلى ذلك الشخص الآخر.

...انظر وتأمّل مرة أخرى؛

ذاتك الحقيقية هنا، وليست هناك.

فما هذا الانعكاس إذن،

ظلّ وجهك هذا؟

كما أن النور والظلام غير متصلين،

فإن الوجود غير مُرتبط بالعدم.

<u>القصيدة السابعة: سُكرٌ الهي</u>

مُرتادو الحانات

الحانة مسكن العشاق،

المكان الذي يعشش فيه طائر الروح،

المأوى الذي لا وجود له

في عالمٍ بلا شكل.

مُرتادو الحانات مُقفرون في صحراء مُوحشة،

حيثُ يرون العالم سرابًا.

الصحراء لا حدود لها ولا نهاية لها،

لأنه لم يرَ أحدٌ بدايتها ولا نهايتها.

حتى لو تجولتَ بحمى لمئة عام،

ستظل وحيدًا إلى الأبد.

لأن سكانها بلا رؤوس ولا أقدام،

لا مؤمنون ولا كفار،

لقد نبذوا الخير والشر،

ونبذوا الصيت والشهرة،

عن شرب كأس الإيثار؛

بلا شفاه ولا فم،

ويتجاوزون التقاليد والرؤى والحالات،

يتجاوزون أحلام الغرف السرية، والأضواء والمعجزات.

إنهم سكارى برائحة رواسب الخمر، وقد بذلوا فديةً

عصا الحجاج وكأسهم،

معجون أسنان ومسبحة.

تارةً يصعدون إلى عالم النعيم،

بأعناقٍ مرفوعةٍ كأعناق المتسابقين،

أو بوجوهٍ مسودةٍ مُتجهةٍ نحو الجدار،

تارةً بوجوهٍ محمرةٍ مربوطةٍ إلى الوتد.

الآن في رقصة الفرح الصوفية مع الحبيب،

يفقدون رؤوسهم وأقدامهم كسماءٍ تدور.

في كل لحنٍ يسمعونه من المغني

يأتيهم نشوةٌ من عالم الغيب.

29

ففي مجرد كلماتٍ وأصواتٍ

للأغنية الصوفية

يكمن سرٌّ ثمين.

من شرب كأسٍ من الخمر النقي،

من كنس غبار تلال الروث عن أرواحهم،

من إمساكهم بأردية السكارى،

أصبحوا صوفيين.

نبيذ النشوة

يكشف النبيذ، المضاء بشعاع من وجهه، عن فقاعات الشكل،

مثل العالم المادي وعالم الروح،

التي تبدو كحجاب للقديسين.

يُذهل العقل الكوني حين يرى هذا،

وتُستعبد الروح الكونية.

اشربوا النبيذ! فالكأس وجه الصديق.

اشربوا النبيذ! فالكأس عينه، ثملة ومُشبعة بالنبيذ.

اشربوا النبيذ! وتحرروا من برودة القلب،

فالسكّير خير من الراضي.

العالم كله حانته،

كأس نبيذه قلب كل ذرة،

العقل ثمل، والملائكة ثملة، والروح ثملة،

والهواء ثمل، والأرض ثملة، والسماء ثملة.

السماء، وقد ارتسمت عليها علامات الدوار من رائحة أبخرة النبيذ،

تتأرجح ذهابًا وإيابًا؛

الملائكة، يرتشفون خمرًا نقيًا من الكؤوس،

يسكبون رواسبه على العالم؛

من رائحة هذه الرواسب يصعد الإنسان إلى السماء.

ثمِلًا من جرعة، تسقط العناصر

في الماء والنار.

بمجرد التقاط الانعكاس، يصبح الجسد الهش روحًا،

والروح المتجمدة بحرارتها

تذوب وتصبح حية.

يبقى عالم المخلوقات في حالة دوار،

يضل طريقه إلى الأبد بعيدًا عن المنزل والبيت.

30

من رائحة الرواسب يصبح فيلسوفًا،

ومن يتأمل لون النبيذ يصبح قريبًا،

ومن نصف جرعة يصبح متدينًا،

ومن وعاء ممتلئ يصبح عاشقًا،

وآخر يبتلع جرعة واحدة

كأسًا، وحانة، وحامل كأس، وسكارى؛

يبتلع كل شيء، لكن فمه يبقى مفتوحًا.

الخمر، الشعلة، والجمال

تجليات الحقيقة

هي الخمر، الشعلة، والجمال؛

الخمر والشعلة هما نور "العارف" وتألقه،

الجمال لا يخفى على أحد.

الخمر هو غطاء المصباح،

وشعلة المصباح؛

الجمال هو نور الروح،

فهو ساطعٌ يُشعل شراراتٍ

في القلب.

الخمر والشعلة هما جوهر ذلك النور الباهر،

الجمال علامة الإلهية.

اشرب هذا الخمر، وبموتك على ذاتك،

ستتحرر من سحر الذات.

حينها، سيسقط كيانك، كقطرة،

في محيط الأبدية.

السكر

ما هو الخمر النقي؟

إنه تطهير الذات.

يا لها من حلاوة! يا لها من سكر! يا لها من نشوةٍ هانئة!

يا لها من نشوةٍ هنيئة!

يا لها من نشوة! لحظة سعيدة نستسلم فيها،

وعندما نسقط في التراب، ثملين ومذهولين،

في فقر مدقع سنكون أغنياء وأحرارًا.

فما فائدة الجنة والحور العين إذن؟

فلا غريب يجد مدخلًا لتلك الغرفة الغامضة.

لا أعلم ماذا سيحدث بعد أن أرى هذه الرؤية وأتجرع هذه الكأس،

31

ولكن بعد كل سكر يأتي الصداع،

ويغرق الألم روحي وأنا أتذكر هذا!

32

القصيدة الثامنة: العقل والإرادة الحرة

العقل

دع العقل يذهب. فنوره

يحرق العقل من رأسه إلى قدميه.

إن أردت أن ترى ذلك الوجه،

فابحث عن عين أخرى. الفيلسوف

بعينيه الاثنتين يرى ضعفًا،

وكذلك لا يستطيع أن يرى وحدة الحقيقة.

كما يحرق نوره الملائكة،

كذلك يستهلك العقل.

كما يضيء نور أعيننا الشمس،

كذلك نور العقل نور الأنوار.

المعرفة

التعلم ليس إلا الغلاف الخارجي

للحرف؛

القشرة الجافة التي تُغطي الجوزة،

لا النواة المُخبأة في داخلها؛

ولكن لا بد من وجود القشرة

لتنضج النواة.

فمن التعلم تأتي معرفة الإيمان العذبة.

يا روح أخي، اسمع،

اسعَ لاكتساب معرفة الإيمان،

فإن "العارف" في كلا العالمين

له مكانة عالية.

المعرفة لا تُحب هذا العالم الشكلي

الخالي من الحقيقة.

ابدأ في حرث حقلك

لحصاد العام القادم.

المعرفة ميراثك،

تحلَّ بمبدأ جميع الفضائل.

عمى العقل

33

كما أن الإنسان الأعمى منذ ولادته

لا يُصدق ولا يفهم

وصفك للألوان،

حتى لو أريته أدلةً لقرن من الزمان،

كذلك الأعمى

لا يستطيع الابن أن يرى المستقبل.

ولكن للإنسان، فوق العقل، معرفةٌ ما

وضعها الله في روحه وجسده

وبها يُدرك أسرارًا خفية.

وكأن النار في الصوان والفولاذ

عندما يُضربان معًا،

يُضاء العالمان بالنسبة له في ومضة.

الإرادة الحرة

تقول: "أنا نفسي أملك إرادةً حرة،

فجسدي هو الحصان وروحي هي الفارس،

وزمام الجسد في يد الروح،

والتوجيه كله مُعطى لي".

يا أحمق، هذه أكاذيب وأوهام

ناشئة من وجود وهمي.

بما أن جوهرك هو العدم،

فكيف لك أن تكون لك إرادة حرة؟

وأن وجودك واحد مع العدم،

من أين أتت إرادتك الحرة هذه؟

الخيال يوزع الأفعال

كما في مسرحية أو مهزلة،

فعندما خُطط لأفعالك،

قبل وجودك،

خُلقتَ لغرضٍ مُعين،

بإرادة الحقيقة.

لذلك، مُقدَّر للإنسان، قبل وجوده،

لعملٍ مُعين.

) ...يا لها من سُبُلٍ عجيبةٍ منك، بلا كيف ولا سبب(!

شرف الإنسان يكمن في العبودية،

في عدم امتلاكه نصيبًا من حرية الإرادة.

34

ليس للإنسان شيءٌ في ذاته،

ومع ذلك يسأله الله عن الخير والشر،

ليس للإنسان خيار، إنه تحت السيطرة.

يا مسكين، يبدو حرًا، ومع ذلك فهو عبد.

سلِّم نفسك للحقيقة،

فأنت عاجزٌ في قبضتها؛

ستجد الحرية من الذات في الكل،

ويا درويش**!** في الحقيقة ستجد الغنى.

٣٥

القصيدة التاسعة. الإنسان: قدراته ومصيره

للصوفيين

أنت مقيد بوتر

بأرواح المخلوقات التي سبقتك،

لذلك فهم خاضعون لسلطانك،

وروح كلٍّ منهم مختبئة فيك.

في وسط العالم، أنت النواة،

مركز العالم.

...عالم العقل والفكر هو حظك،

الأرض والسماوات ثوبك.

...قواك الطبيعية عشرة آلاف

تتجاوز الحدود والحسابات.

"أنا" و"أنت"

"أنا" و"أنت" ما هما إلا شبكتان،

في كوات مصباح،

يشرق من خلالهما نور واحد.

"أنا" و"أنت" هما الحجاب

بين السماء والأرض؛

ارفع هذا الحجاب وسترى

لم يعد هناك رباط الطوائف والمذاهب. عندما لا وجود لـ"أنا" و"أنت"،

ما هو المسجد، وما هو الكنيس؟

ما هو معبد النار؟

أشكال منعكسة من العادة

كرر فعلًا عدة مرات

وستتقنه؛

العادة تُنشئ تصرفات

كما تنضج الثمار مع مرور الوقت.

بالممارسة يتعلم الإنسان حرفة،

وبالعادة يجمع أفكاره.

36

تذكر في اليوم الأخير

أن جميع عاداتك وأفعالك

ستظهر بوضوح،

لأن رداء الجسد

سيُجرد. والشكل المتبقي

سيعكس رذائلك وفضائلك،

كما تنعكس الأشياء في الماء النقي.

ستتجسد تصرفاتك مرة أخرى،

تتجلى كأنوار ونيران؛

لأن جميع القيود الظاهرية ستُزال.

أنت، يا من أنت طاهر من الجسد الأرضي،

مستنير بالحق،

ستظهر في كل قلب،

من حبك الطاهر.

حينها ستُصاب بالسكر، مُبدِّدًا العالمين في فوضى.

أدنى ما يلزم

لو لم يكن في العالم كُنّاس

لدُفِن العالم في التراب.

خادمٌ أمين

لكي تصبح خادمًا أمينًا،

ازرع الإيمان والإخلاص،

جدِّد إيمانك في كل لحظة

ما دام الكفر يسكن قلبك.

اترك رغبة أن يراه الناس،

اخلع رداء الدراويش المُرقَّع

واربط حزام المجوس.

كن مؤمنًا، كن مؤمنًا، كن مؤمنًا!

"بعيدًا" و"قريبًا"

إذا أضاء عليك نوره،

تصبح قريبًا منه

وبعيدًا عن وجودك.

37

لأنك بقربه

تبتعد عن نفسك.

ما فائدة وجودك غير الموجود؟

الحكيم

الفضيلة والإنصاف،

الشجاعة والاعتدال،

هي صفات الحكيم الأربع.

ليس مكرًا ولا أحمق،

شهواته تحت السيطرة،

متحرر من التذلل والتفاخر،

ومتحرر من التهور والجبن.

جميع الفضائل تقع بين

الإفراط والنقص،

درب ضيق بين

هاوية الجحيم التي لا قرار لها،

دقيق وحاد كنصل السيف،

لا يسمح بالتباطؤ أو الدوران.

التوازن قمة الكمال،

يصبح كجوهر بسيط.

كما تُشرق أشعة الشمس على الأرض،

كذلك يُشرق نور العالم الروحي ببراعة على من بلغ هذا التوازن.

النبي والقديس

النبي، المتألق في كماله،

كنور الشمس الساطع،

والولي، الكاتم لقداسته،

كنور القمر الخافت.

بالرفقة، يكون القديس

مع النبي،

38

وعندما يجد مدخلاً إلى تلك الغرفة السرية،

يُحب ويُحب من الحقيقة.

الأول والآخر

العالمان أنجبا روح آدم،

التي، وإن كانت أولى في الفكر، خُلقت أخيراً.

في ذات الإنسان ينكشف السبب النهائي،

فما من أحدٍ سواه.

يا أول، يا من أنت أيضاً جوهر الآخر!

يا خفي، يا من أنت أيضاً جوهر الظاهر!

يا من تتساءل ليل نهار عن نفسك،

لا تفكر في ذاتك بعد الآن،

فإن غاية هذا الفكر هي التشويش.

فناء الظواهر

السماوات والنجوم

ستختفي في الوقت المحدد.

ستضرب موجة الأرض، وها هي!

إيش.

وحدها الحقيقة ستبقى ثابتة.

وأنت في تلك اللحظة،

مغادرًا هذه الحياة الحالمة،

متخليًا عن ذاتك،

ستكون واحدًا مع الحبيب.

يا سيدي، تأمل في مجيئك وذهابك،

وفي آلاف الوجودات التي تنتظرك!

الإيمان المكتوب

اقرأ ما كُتب على قلبك،

وستفهم ما ترغب فيه،

ففي اليوم الذي عجن فيه الطين،

كتب على قلبك، بنعمته، الإيمان.

الإنسان الكامل

39

على الرغم من ميراثه،

الإنسان الكامل عبد

ويعمل عمل العبد.

الشريعة هي ثوبه الخارجي،

مع أن باطنه هو الطريق الصوفي.

هو مشهور بالمعرفة والتفاني،

لكنه بعيد عن كل ذلك،

لأنه غارق في تأمل الواحد.

وعندما انتهى من الحج، حصل على تاج الخلافة.

القصيدة العاشرة: الواحد

الاسم

لكل مخلوق كيانه

من الاسم الواحد،

الذي منه ينبثق،

وإليه يعود،

بتسابيح لا تنتهي.

الضيف الحبيب

انبذ وجودك تمامًا،

فهو ليس إلا حشائشًا ونفاية،

اذهب، طهر حجرة قلبك،

واجعلها مسكنًا للحبيب.

عندما تخرج، سيدخل،

وإليك، وقد تخلى عن ذاته،

سيكشف عن جماله.

الخالي من الظلال

على درب الحقيقة الضيق،

على خط الزوال، يقف منتصبًا،

لا يلقي ظلًا أمامه ولا خلفه،

عن يمينه ولا عن يساره.

شرقًا وغربًا تُلقى قبلته،

غارقة في وهج نورٍ ساطع.

هلمّ يا نور الله، يا إلهًا بلا ظلال!

المجهول

تأمّل في رحمات الله، لا في جوهره.

فأعماله تنبع من جوهره، لا جوهره من أعماله.

يُشرق نوره على الكون أجمع،

وهو نفسه محجوب عن الكون.

41

كتاب الله

الكون كتاب الله،

ومن أُتيحت له رؤية الإلهية

يقرأ فيه ويفهم.

الجوهر حروفه الساكنة، والحوادث حروفه المتحركة،

والمخلوقات المختلفة علاماته ووقفاته.

البيت الأول هو "العقل الكوني"،

البيت الثاني هو "الروح الكونية"، "بيت النور"،

وهذا كمصباح ساطع.

الثالث هو "السماوات العليا"،

الرابع "العرش."

بعد ذلك، هناك سبعة أجرام سماوية،

"فصل الأطراف السبعة"،

وصور العناصر الأربعة،

ثم ممالك الطبيعة الثلاث

التي لا يُحصي آياتها أحد.

وأخيرًا نزلت روح الإنسان.

النور الذي لا يتغير

تظن أن هذا العالم دائم بذاته

ويدوم بطبيعته،

لكنه في الحقيقة شعاع نور من الحقيقة

والحقيقة مخفية بداخله.

وهذا النور لا يتغير ولا يتغير

وخالٍ من التغير أو الدرجة.

لو أن الشمس بقيت دائمًا في بقعة واحدة،

وأشرقت دائمًا بنفس الدرجة،

لما عرف أحد أن النور يأتي منه.

المكافأة المستقبلية

تأمّل هنا والآن في صفاته،

لعلّك تراه بذاته غدًا.

42

القصيدة الحادية عشر: الذات

مغامرة الذات

الصلاة الحقيقية يمكن كن لك فقط

عندما تُخاطر وتُغامر بنفسك

ويكون جوهرك نقيًا.

حينها تكون صلواتك "بهجة العيون"

ولا يبقى أي انفصال،

لأن العارف والمعروف واحد.

تجاوز الذات

ارتفع فوق الزمان والمكان،

تجاوز العالم، وكن لنفسك عالمك الخاص.

الإيثار

في القلب الفارغ، الخالي من الذات

يُسمع صدى الصرخة:

"أنا الحق."

هكذا يتوحد الإنسان مع الأبدي،

يصبح السفر والترحال واحدًا.

43

القصيدة الثانية عشر: الأصنام والأحزمة والمسيحية

هل ما زلت تلجأ إلى الكبير والصغير؟

تتأمل في الدين والتقوى،

والتدريس والتلمذة؟

والتي تعني النفاق والعبودية.

حينها تكون الأصنام والأحزمة

والمسيحية لا تزال لك.

الأصنام

الوجود الحقيقي للصنم ليس باطلًا

لأن خلقه الله،

وكل ما فيه خير.

الوجود خيرٌ محض، إن احتوى على شرٍّ

يأتي من "غيره."

الحقيقة عبادة وثن،

لو كان المسلم يعلم فقط؛

لكنه لا يرى في الأصنام إلا المخلوق المرئي،

لا الحقيقة المخفية في الصنم.

عبادة الوثن توحيد،

لأن كل الأشياء رموز الوجود.

بعدد المسبحات، وترديد الصلوات،

وقراءة القرآن،

لا يصبح الوثني مسلمًا.

من ينكشف له الكفر الحقيقي

يشمئز بالإيمان المتظاهر.

في كل جسد روحٌ مختبئة،

والإيمان الحقيقي يخفي الكفر.

من زين وجه الصنم

بهذا الجمال؟

ومن يعبد وثنًا

إلا إذا شاء الله؟

44

في كل شيء

لا ترى إلا واحدًا، قل واحدًا، اعرف واحدًا،

الحزام

علامة الخدمة

هو المعقود شدُّوا أحقاءكم، كرجلٍ شجاعٍ، بالرجولة.

انبذوا الحكايات الباطلة،

والأوهام والرؤى الصوفية؛

لا تحلموا بالأضواء،

بالعجائب، بالمعجزات،

فمعجزاتكم تكمن في عبادة الحقيقة؛

كل ما عدا ذلك هو كبرياء، وغرور،

ووهم الوجود.

المسيحية

أرى أن غاية المسيحية

هي التطهير من الذات،

والتحرر من العبودية.

هناك ملاذٌ للروح،

بوابة الوحدة المباركة،

وكر الأبدية.

روح الله (يسوع)،

المنبثق من الروح المبارك،

علّم هذه العقيدة.

فيكم روحٌ،

هي مثالٌ على هذا الروح المبارك.

انعتقوا من شهوات البشر الجسدية

وتدخلوا الحياة الإلهية.

ومن كان طاهرًا كالملائكة

سيُرفع إلى السماء الرابعة.

الجامع والدير

45

إذا كان "الآخر" و"الآخرون" أمام عينيك،

فليس المسجد أفضل من دير مسيحي؛

ولكن عندما تخلع رداء "الآخر"،

يصبح الدير مسجدًا.

46

القصيدة الثالثة عشر: حلقات الأفكار

انظر إلى العالم مختلطًا،

الملائكة مع الشياطين، والشيطان مع رئيس الملائكة.

الجميع مختلطون كالبذرة والثمرة،

الكافر مع المؤمن، والمؤمن مع الكافر.

في نقطة الحاضر تتجمع

جميع الدورات والفصول، اليوم، الشهر، والسنة.

العالم في البداية هو عالم بلا نهاية.

6

...من كل نقطة في هذه الدائرة

ألف شكل

القصيدة الرابعة عشر: تجلّي النور

النور

النور الظاهر

يأسر القلوب، تارة كالمغنّي، وتارة كساقي الخمر.

يا له من مغنيّ، بلحنٍ عذب،

يحرق حصاد مائة عبد!

يا له من ساقي خمر، بكأسٍ واحدة،

يُسكر مائتين وسبعين!

يدخل المسجد فجرًا،

لا يترك فيه أحدًا ساهرًا؛

يدخل الدير ليلًا،

يروي حكايات الصوفية؛

يدخل الجامعة مُحجّبًا كسكّير،

يُصاب الأستاذ بسكرٍ لا أمل منه.

يُجنّ المريدين في حبّه

ويُطردون من بيوتهم،

يجعل أحدهم مؤمنًا والآخر كافرًا،

مُقلقلًا العالم.

جُبِّرت الحانات بشفتيه، وأشرقت المساجد بخده.

كل ما أتمناه وجدته فيه،

أُنقِذ من نفسي،

كان قلبي جاهلاً بذاته،

محجوباً عنه بمئة حجاب

من الغرور والغرور والوهم.

الزيارة

في فجر يومٍ ما، دخل الصنم الجميل بابي، وأيقظني من نومي، من غفلتي.

٥١

أضاء وجهه حجرة روحي السرية،

وانكشف لي وجودي في نوره الحقيقي.

تنهدت دهشةً عندما رأيت ذلك الوجه الجميل.

كلّمني قائلاً:

"طوال حياتك سعيتِ وراء الشهرة والسمعة؛

فإن سعيكِ وراء الذات هذا وهمٌ يمنعكِ مني.

إن نظرةً عابرةً إلى وجهي، لحظةً واحدة، تساوي ألف عامٍ من التفاني".

نعم، انكشف وجهُ مُزيّن الدنيا أمام عينيّ؛

وأظلمت روحي خجلاً

لأتذكر حياتي الضائعة،

وأيامي الضائعة.

الهبة

ثمّ ذلك القمر

الذي أشرق وجهه كالشمس،

لما رأى أنني قد تخلصت من الأمل،

ملأ كأساً من المعرفة الإلهية

ومرّ إليّ، وأمرني أن أشرب،

قائلا: "بهذا الخمر،

الخالي من الطعم والرائحة،

اغسل الكتابة

على لوح كيانك".

أثر المشروب

سكران من المشروب النقي

الذي استنزفته حتى الثمالة،

سقطت في التراب.

مذ ذاك لا أعرف إن كنتُ موجوداً أم لا،

لكنني لستُ صاحية، ولا مريضة ولا ثملة.

أحياناً، كعينه، أمتلئ فرحاً،

52

أو، كتجعيدة شعره، ألوح؛

أحياناً، يا للأسف! من العادة أو الطبيعة، أكون مستلقيًا على كومة تراب. أحيانًا، بنظرة منه، أعود إلى حديقة الورود.

خاتمة

هذه الباقة من الأزهار العطرة

قطفتها من تلك الحديقة،

وسميتها "حديقة الورود السرية."

فيها تتفتح

ورودٌ من أسرار القلب

لم تُروَ من قبل؛

فيها تُغني ألسنة الزنابق،

وعيون النرجس تبصر كل شيء، البعيد والقريب.

تأمل كل واحدة منها بعين قلبك

حتى تتلاشى شكوكك.

سترى التقاليد، والحقائق الدنيوية والصوفية،

مرتبةً بوضوحٍ في معرفةٍ دقيقة.

لا تبحث بعيونٍ باردةٍ عن العيوب،

إلا ستتحول الورود إلى أشواكٍ وأنت تنظر.

الجحود علامة جهل،

فمن يعرف الحقيقة شاكر.

عندما تذكرني، فلتتلفظ بـ "الرحمة عليه."

أختم باسمي:

"اللهم ارزقني خاتمة حميدة".

نهاية الكتاب